باب التربية والتعليم

(*) الثمرة الخامسة من شجرة الراسخ

الخط الديوانى

انشأ « أميل » يخط بالقلم خطاً مناسباً لحاله ولكنى فى شك من جريه على قواعد الخط فى شىء مما يكتب

كان الخط فيما مضى كأنه من صفات الكاتب الذاتية وكان يدل على حالة من أحواله سواء فيه الحسن والقبيح ولذلك وجد متوسمون يعتقدون انهم يقرأون فى خط من لا يعرفونه من الناس ضروب استعداده النفسى ولا بدع فى هذا فان كل أعمال الإنسان منبعثة عن أخلاقه وسجاياه فلا شىء من الاستحالة ولا من البعد عن الحقيقة على ما أرى فى أن يكون الخط وهو الأثر الدقيق الثبت لصنوف الوجدان وأنواع المعانى على الورق سمة من سمات النفس وأمارة من أمارات الطبع . يشهد لذلك ان من الدين خطوطهم بين أيدينا قد غيروا فى حياتهم طريقتهم فى صوغ حروفهم عدة مرات فلا يمكن أن يكون هذا التغير الذى يحق لنا المراهنة على حصوله بغير شعور منهم أجنبياً عن بعض استحالات حصلت فى عقولهم . ومن الأمور التى يعتقد الباحثون فى هذه المسألة انهم تنبهوا إليها ولاحظوها ان أقرب أطوار الكاتب إلى الفطرة هو ذلك الطور الذى يكون فيه خطه موسوما باقرب السمات إليها أيضاً

اخترع الناس فى هذه الأيام للخط طرقاً لاشك ان لها مزية فى تهذيبه وتقويم يد الكاتب ولكنها متى انتشرت وعم استعمالها اتحدت الخطوط وتشابهت فلم يبق بينها فروق تميز بعضها من بعض فنحن فى هذا القرن قرن السكك الحديدية والاقلام الحديدية نسارع كلنا إلى تحقيق الوحدة فى كل شىء

لو ان هذا الميل إلى الصناعة اقتصر على أمارات الفكر وقوالب المعانى لكان الخطب هيناً ولكنه لم يقف عندها بل تعداها إلى الفكر نفسه

أنا على يقين من وفرة علومنا ومعارفنا فليست هى التى تعوزنا إذ قد وجدت

(*) معرب من باب تربية اليافع من كتاب أميل القرن التاسع عشر

طرق سهلة صيرت مبادئ العلم وآداب اللغة والفنون الجميلة قريبة التناول لجميع الناس وكل يوم يبعث الناس بانتشار أنوار العرفان بيننا وهو أمر لا يبعد عن المنازعة في جلالة خطره وعظم شأنه ولكني لا أرى على حرجاً ان سألت نفسي هذه الاسئلة وهي : هل ارتفع عقل الإنسان في هذا القرن إلى مدارك اسمى مما بلغه في القرن الثامن عشر ؟ هل حصل له من قوة النفس والانبعاث الذاتي إلى العمل والأخلاق الممتازة التي تتجلى في صورة مجتمعة الفضائل والأعمال البديعة أكثر مما كان له في ذلك القرن ؟ هل ارتفعت قوة الإدراك مع انتشار تساوي الناس فيها كل يوم ؟

وأسفي اني التفت حولي فيعروني الذهول وتمكنني الدهشة لما أراه من غلبة الاوساط في العقل وكثرتهم وأسمع الناس يرددون القول بأن العقل والاستعداد قد ضاعا في هذه الأيام حتى عما السابقة . القوم لو بهم قالوا ان كل واحد أصبح فيه عقل غيره واستعداده لكان هذا القول أصح وأقرب إلى الصواب . نعم ان قرننا قد وصل إلى طريقة بديعة في الاكثار من الدواليب والآلات المحاكية للفكر وقامت المهارة في الفنون مقام الاستعداد الفطري والعزعة وأزهق التكلف في آداب اللغة روح الإلهام والبداهة وسلبت الدسيسة والحذاق في مجرى الحياة وشئونها الفضل والجدارة من مرتبتها وحلا محلها فنرانا الآن منحدرين على طريق مستقيم عام إلى محو الشعور النفسي والرجحان في العقل والخلق محواً تاماً فعليك أيها الانسان من الآن أن تتبع بأن تكون كجميع الناس .

ولا شك ان هذه الحالة التي نراها العقول الآن ترجع إلى أسباب كثيرة ليس من غرضي الاستفاضة فيها منها نظام معيشتنا وفقدان الحرية السياسية عندنا واهتمامنا المزايد بالمصالح المادية ومنها أمر لا يسعني اغفاله والا استحققت اللوم وهو ان التربية بالحالة التي هي عليها اليوم أقرب إلى تزعيب الأطفال واخفاء مواضع الضعف فيهم بعض طرق التعليم البديعة التي تساعد تكون آلة محضة . أقول انها أقرب إلى ذلك منها إلى مساعدة انكشاف ملكاتهم وقواهم النفسية وتنميتها فترى القائمين على التعليم مشغولين عن تفهيمهم ان الغرض من مجاهداتهم وكدحهم في التعلم انما هو نيل الفخر بأن يكونوا عمالا ممتازين يستحقون بفضله الارتقاء إلى المناصب ونيل الغنى ويمتنعون منهم أن يتعلموا لذاتها وهم بذلك يكررون بحمل الاحداث على أن يتبينوا ان المواضعة والصنعة هما أقرب طرق النجاح وأحسن وسائل الفلاح . اهـ

الثمرة السادسة

﴿ مذهب تشغيل المتعلمين بالأعمال المادية الشاقة ﴾

توجد فى بعض المدارس بانكلترا عادة قديمة يدهش منها الأجانب كثيراً ذلك أن التلامذة — فما يوجد منها بمدينتى راتون وهارو وهى التى يدخلها أبناء السراة غالباً — يخدم بعضهم بعضاً وليس أمر الخادمية والمخدومية فيها متعلقاً بمكانة التلميذ فى قومه ولا بغنى أهله أو فقرهم بل بالأقدمية وبعض الدرجات المدرسية فيجوز أن يلزم الطفل الغنى السرى بتنفيض ثياب الطفل الفقير الوضيع وتأدية مطالبه وتنظيف غرفته وإيقاد ناره وتسوية طعامه وحمل كتبه إليه فى قاعة الدرس فيقع الإلزام بالخدمة على من تجعلهم المدرسة فى الدرجات الدنيا من أقسامها .

والذى استنتجته من هذه العادة هو ما يكون بين التلميذين الخادم والمخدوم من رابطة التابعية الذاتية فان الأقدمين من التلامذة يسيرون أحياناً مع من يعتبرونهم خدماً لهم من إخوانهم سيرة فى غاية القسوة حتى إنه ليقع منهم فى حقهم ما تقرأه فى قصص موليير [1] المضحكة من الشتائم وضربات الأكف وجميع ضروب سوء المعاملة التى كانت تقع من صغار الموالى على خدمهم بأرجلهم وأيديهم الخفيفة الحركة ، أولئك الخدم الصغار الذين كانوا بالأمس أرقاء صبراً على الذل مستسلمين للجور يصيرون فى الغد سادة قساة متجبرين وهكذا شأن الدنيا وعلى هذا تتنقل جميع أنواع العتو والطغيان من سلف إلى خلف .

لا أرى فيما عدا هذا العيب شيئاً فى هذه الطريقة فانه لا ضرر مطلقاً فى أن يقوم بخدمة المدرسة التلامذة أنفسهم . ولقد عرفت فيما مضى مدرسة كان يديرها رجل وافر العقل عالى الفكر اختار هذا المذهب وتيسر له أن يجنى منه فوائد كبرى فى تربية الناشئين ذلك أنه عهد بمعظم أعمال مدرسته إلى جماعات من الغلمان والناشئين مقسمين إلى طوائف على حسب مقتضيات أذواقهم وضروب ميلهم الفطرى لأنهم كانوا فى هذه الأعمال مختارين متطوعين فكان الواحد منهم إما لياداً أو كناساً أو وقاداً للمصابيح أو موقظاً لاخوانه فى الصباح أو منظماً لقاعة الدرس وكانوا يتناوبون خدمة

---

(١) موليير هو أكبر واحد شاعر قصصى فرنساوى ولد فى باريس سنة ١٦٣٢ ومات فى سنة ١٦٧٣ مسيحية

الفائدة وكانت الأعمال المسخرة التى تقتضى أكثر من غيرها إخلاصاً أجل من غيرها أيضاً فى نظر التلامذة لأن رئيس المدرسة كان يتظاهر بتميزها عن غيرها بما كان يوزعه من شارات الشرف على من كان يدعوهم إقدامهم إلى مباشرتها . ولبثت زرت هذا المكان حتى كنت تشاهد مقدار التحمس الفرح الذى يبديه كل تلميذ فى القيام بعمله الذى كأنه فرض اختيارى أوجبه على نفسه . كان من مزايا هذه الخدمة البيتية للتلامذة أنها كانت تسلية لهم من عناء الدروس لأنه كان من رأى رئيسهم أن فى المراوحة بين الأعمال استراحة من مشقتها وكان من غرضه فوق ذلك أن يلقى فى نفوسهم معنى احترام جميع الوظائف وكل فروع العمل اليدوى فان الانسان لا يحتقر من غيره ما يباشره هو بنفسه .

إنى لتعرض لى فى بعض الأحيان أحوال تحملنى على اعتقاد أن ماندعيه من حب المساواة ليس إلا رياء ونفاقاً لأنى أرى من لا تفتر ألسنتهم عن اللهج بهذه الدعوى لا يجرون على مقتضاها فى أعمالهم فالطفل الذى يرى فى المدارس أو البيوت أناساً استؤجروا لخدمته يستنتج من ذلك طبعاً أن الأعمال الشاقة أو الكريهة هى من حظ الطبقة السفلى من قومه ولا يفيده فى محو هذا الاعتقاد من نفسه أن تحدثه فى المستقبل عن ضرورة تقسيم العمل بين الناس أو عن غير ذلك من المسائل النظرية الكثيرة فانه يعلم كمال العلم أن ليس للخدم أن يأكلوا على موائد سادتهم ولما كان يتوهم فى والديه أنهما يعدانه لأن يكون من السادة ويكفيانه بذلك مؤنة الاشتغال ببعض الأعمال التى من شأنها أن توسخ يديه أو تقذر وجهه . كان رأيه فى هذه الأعمال لا بد أن يئول إلى من يقارفونها من الناس فيحكم عليهم بحكمه عليها وبذلك لا يكون إلا كثير الانسياق إلى احتقار جميع الصناع والرزاية عليهم .

صممت أنا وهيلانه على تكليف «أميل» بعمل كل ما يلزم لفراشه وهجرته وثيابه ولا أكره مطلقاً أن أراه يمسح نعليه ويسوى عند الحاجة طعامه فان الفائدة التى تعود عليه من ذلك ليست قاصرة على كونه يتعلم عدم امتهان من يكسبون قوتهم بمثل هذه الأعمال بل إنى فيه أيضاً تنمية لحريته الشخصية بتعويده على الاستغناء عن مساعدة غيره فالأسير المسكين من يعجز عن خدمة نفسه . اهـ

الاحتفال السنوى بمدرسة الجمعية الخيرية وخطبة المفتى

فى أصيل يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول احتفل فى قبة الغورى الاحتفال السنوى المعتاد بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية فى القاهرة وقد أجاب دعوة رئيس الجمعية الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الجم الغفير من الفضلاء والوجهاء فحضروا الاحتفال : ابتداء أحد التلامذة بترتيل آيات من سورة الفتح ثم ارتقى أحد التلامذة الدكة التى يختبر عليها التلامذة فاعطى كتاباً ففتحه وقرأ فيه جملة صالحة قراءة صحيحة فسأله الرئيس بيان معناها فبينه : ثم اختبر آخرون بالاعراب وبالحساب وبرسم خريطة أفريقيا وبالتاريخ الطبيعى كحكاية الدورة الدموية وقرأ بعضهم مقالات محفوظة فى فوائد الصوم وفوائد التربية وغير ذلك فأحسنوا جميعاً وصفق لهم النادى مرات متعددة . وأنكر الأستاذ الشنقيطى التصفيق على القوم أنه بدعة فتركه بعضهم وأصر عليه الاكثرون لأن بعضهم يراه من العادات الباحة التى اقترن بها تنشيط التلامذة وادخال السرور على قلوبهم وبعضهم لم يصل إليه الانكار . وكان لرئيس كعادته يناقش كل تلميذ فيما يقول ويطلب منه التعبير عما قاله حفظاً بعبارة اعرفية . ثم وزع الجوائز وهى على ماذكرنا فى السنة الماضية فكان أحدها ربع المال الذى جمع لاقامة تذكار لعلى باشا مبارك لخدمته المعارف فى مصر والثانية تبرع الأستاذ الشيخ عبد الرحيم الدمرداش فهذا وزع على نفر من الناجحين فى المدرسة . وأما الأول فاستقر الرأى على أن يشترى به كل عام كتب نافعة تعطى للتلميذين اللذين يفوقان سائر التلامذة ممن أتموا المدة بشرط أن يشتغلا بعد المدرسة بتعلم صنعة من الصنائع وكذلك كان . وبعد ختم الاحتفال بترتيل أحد التلامذة آيات من الكتاب العزيز وقف رئيس الجمعية فشكر للحاضرين سعيهم فى الخير لمشاهدة أولاد الفقراء المتعلمين ثم قال مامعناه ملخصاً :

لابد أن يكون بعض الحاضرين ممن يشتغلون بعلم التربية ينتقد علينا شيئاً انا أواقفهم على انتقاده قبل أن أذكره وأجيب عنه وهو أن يحفظ التلامذة مقالات فى الدين والآداب كالذى سمع منهم الآن فيها من الحكم والمعانى العالية مالا ترتقى عقولهم إلى الاحاطة به وماتعجز ألسنتهم عن بيانه بغير العبارة المحفوظة . أعيد القول بأن هذا الانتقاد صحيح وأن حشو الاذهان بحفظ مالا يفهم يفسدها ويذهب باستعداد العلم منها . ومدارس الجمعية تهتم

بهذا الأمر فنحن نؤكد دائماً على المعلمين أن لا يلقوا التلامذة كلاماً لا يفهمونه والعمل على هذا والتفتيش من ورائه لتحقيقه

وأما ما سمعتم فقد جاء من باب الاستثناء لغرض صحيح يوافقنا عليه المتقدمون بادى الرأى . ذلك ان التلميذ يخرج من مدرستنا إلى العمل غالباً ولا ثقة لنا بأنه يسمع فى خطب المساجد ولا فى دروسها شيئاً من حكم الدين وأسراره التى تبعث النفوس على العمل بأحكامه كالذى سمعتم من حكم الصوم . وكذلك لا نرجو أن يجد معهداً من معاهد العلم يسمع فيه شيئاً من مباحث التربية وعلم الاجتماع والآداب العالية بالأولى فرأينا أن يحفظ كل تلميذ بعض مقالات فى هذه المقاصد يجتهد فى إفهامه معانيها بالجملة كما يقتضيه سنه ويوكل الفهم التفصيلى إلى حوادث الزمان وارتقاء الفكر فيها فهذه المحفوظات القليلة المفيدة ذخر للتلميذ فى مستقبله وهى كبذرة وضعت فى أرض صالحة يتعاهدها الزمان بالسقى والتغذية حتى تثمر الثمرة الصالحة إن شاء الله تعالى

إذا أجلتم النظر فى أحوال المسلمين رأيتم ان ترك تعلم الدين على هذا الوجه من بيان فوائده وحكمه وغرسها فى النفوس (وهو الفقه الحقيقى فى الدين) قد أدى إلى تركه من بعض المسلمين والاتيان به على غير وجهه من بعض آخر . واضرب المثل بفريضة الزكاة التى حفظ تلامذتنا مقالة فى فوائدها فى العام الماضى كما ذكر من حضر احتفاله وفريضة الصوم التى سمعتم فوائدها ومن التى تلى الزكاة فى الترتيب

الزكاة ركن من أركان الإسلام وبذل المال فى إقامة هذا الركن يفضل غيره من أنواع البذل ولذلك قرنت الزكاة بالصلاة فى القرآن فى أكثر المواضع وقد جعل الله انفاق المال فى سبيله آية الإيمان . وجعل تركه علامة النفاق والكفران . وقاتل الخليفة الأول بموافقة الصحابة كلهم رضى الله عنهم مانعى الزكاة . ومع هذا كله نرى المسلمين قد هدموا هذا الركن ونسوه حتى كأنه ليس من الدين بالبتة . وأطال الأستاذ الكلام فى الزكاة وفى مضرة تركها ثم انتقل إلى الصوم وبين أن بعض المسلمين تركوه وان الذين يصومون لا يؤدون هذه الفريضة على الوجه الذى أراده تعالى بقوله « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » وأوضح هذا بذكر ما عليه الناس ثم انتقل إلى الكلام فى تعليم مدارس الجمعية فقال

ان مدارس الجمعية وضعت لتعليم أولاد الفقراء ما لابد منه لكل إنسان وهو أن يحسن القراءة بلغة أمته ويعرف ما يجب عليه من أحكام دينه ويتربى عليه عملا والحساب

والتاريخ وتقويم البلدان وطرفا من مبادئ التاريخ الطبيعي وحفظ الصحة وأدب المعاشرة . ولا بد عندنا من تعليم هذه الأشياء على وجه مفهوم في أربع سنين وسن التلميذ لا يتجاوز الخمس عشرة سنة . وليس عندنا لغة أجنبية لأننا لا نعد التلامذة للوظائف والشهادات وإنما نعدهم للعمل بالحرف والصنائع وما ذكرنا من التعليم لا يستغني عنه صانع ولا زارع

قال . كنت أحب أن يكون هذا التعليم عاما في البلاد ومنبثا في جميع الطبقات ثم يتسنى بعده لكل طبقة أن تتناول من العلوم والفنون واللغات في المدارس الثانوية والعالية ما هي مستعدة له . ولكن المانع للمشتغلين بالتعليم والتعلم من التوجه إلى سلوك هذه الطريقة أمران سأحدهما ان رغبة الناس منصرفة إلى جعل التعليم ذريعة لأخذ الشهادة لأنها شرط للاستخدام في الحكومة والسبب في رغبة الناس في خدمة الحكومة هو ان الناس لعدم ثقتهم بأنفسهم ولجهلهم بطرق الكسب الواسعة وضعف همهم عن سلوكها يودّ كل واحد منهم أن يكون له مورد من الرزق مضمون يعتمد عليه وان كان وشلا تافها فإذا استخدم بمائة وخمسين قرشاً ولو في أعلى الصعيد أو السودان ينام آمناً مطمئناً ويلقي هم الدنيا وراء ظهره الا إذا تيسر له السعي في شفاعة تزيد في راتبه أو ينتقل بها إلى مكان غير مكانه ولو استعمل مواهبه التي منحه الله إياها وكدح في طلب الرزق من طرقه الواسعة لاسيما التجارة لجاز أن يكون من أهل الثراء الواسع وشبع الجيب ما شاء . أصحاب هذه النفوس الخاملة الصغيرة ثم انتقل إلى بيان السبب الآخر في عدم التوجه إلى التعليم النافع فقال :

أما ثاني السببين فداؤه اقل ، وعلاجه أعسر ، أتدرون ما هو ؟ هو المعلمين والمربين فاننا نحتاج في التعليم الابتدائي إلى من يبدئ التلميذ في السنة الأولى بألف با فلا تنتهي السنة الرابعة إلا وهو يقرأ ويكتب ويعرف ما ذكرناه آنفاً وعرض عليكم نموذجيه . والذين يحسنون هذا النوع من التعليم قليلون . وقد عزمنا على تجديد مدرسة للجمعية ولكننا عند المذاكرة فيما كنا نشكو من قلة المعلمين . إننا نحتاج معلماً لاحدى مدارسنا فنعلن ذلك الجرائد فيجيئنا الراغبون بالعشرات فنمتحنهم ونختار من نراه الأمثل وان لم يكن على حسب الرغبة تماماً ثم يتمرن على طريقتنا في المدرسة مع طول التنبيه والتفتيش ومثل هؤلاء يجدر بنا أن نسميهم معلمي الضرورة

قال : ذكرت هذا لأوجه نفوس العلماء والوجهاء إلى تلافي هذا الخطب ومداواة هذه العلة التي هي أم العلل وذلك بإنشاء مدرسة لتخريج المعلمين ولا بد في هذا من سعي العلماء ومساعدة الأغنياء . ثم شكر للحاضرين سعيهم فانصرفوا شاكرين . أقول كتبت بعد أيام من الاحتفال في إثر انحراف في الصحة فان نقصت من فوائد الخطاب ففي غير الفوائد الأصلية وان زدت فربما كان كلة في معنى الكلام تزيد في ايضاحه

﴿ باب الأخبار والآراء ﴾

(تتمة سيرة الكواكبي)

وكان أول عمل عمله في إدارة مجلس البلدية هو قطع عرق الرشوة من العمال الذين يباشرون الأعمال والمصالح ويسمون (الجاويشية) ولكنه زاد في راتبهم لعلمه بأن الذي يضطر أكثر العمال إلى الرشوة هو قلة الراتب . وكان من ظلم الوالي بعد عزل الفقيد من رياسة البلدية ان أرجع راتب الجاويشية كما كان وألزم صاحب الترجمة بدفع ما كان زاده لهم في مدته إلى صندوق البلدية كما ألزمه بدفع ما أنفق على سلاسل الحديد التي منع بها الجمال من طرق النسمة لأن الوالي أمر بإزالتها عقيب عزله ثم عاد فأمر بإعادتها بعد زمن قريب ولكنه لم يعد إلى الفقيد العرابة التي ظلمه بها

ولما عين رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية كانت المحكمة في أسوإ الأحوال في الصورة والمعنى فكان ينفق على إصلاحها من جيبه حتى انه استحضر لها السجوف والاستار من بيته ومنع اختلاط النساء بالرجال إذ جعل لكل مكانا ينتظر فيه دوره للتقاضي ورتب الأوقات ونظم الدفاتر . . .

وكان صاحب عزيمة قوية لا يهاب حاكما ولا يخاف ظالما وعزيمته هي التي جنت عليه فقد كان نجح في عمله عند ما عين مديراً ومفتشاً لمصلحة حصر الدخان كما تقدم في السيرة الرسمية حتى وقع النزاع بينه وبين عارف باشا والي حلب يومئذ فبطل العمل عمل الفقيد في ضبط هذه المصلحة ما عجزت عنه إدارتها العمومية والحكومة جميعاً حتى كانت تخسر في ولاية حلب دون سائر بلاد الدولة . وكان المشتغلون بتهريب الدخان البلدي وبيعه في حلب سبعمائة رجل فعين لهم رواتب شهرية ومنعهم من التهريب بحكمة عجيبة . وسيأتي مجمل خبره في عداد الوالي عند الكلام على بعض العمومات التي نفيها في طريقه